بسم الله الرحمن الرحيم

تخليق الذات الأخلاقية

مقاربة نقدية مقارنة بين مشاريع وائل حلاق وطه عبد الرحمن ونظرية الاستخلاف

مستخلص البحث

يتناول هذا البحث مفهوم «تخليق الذات» كأحد المفاهيم المحورية في الفلسفة الأخلاقية المعاصرة، من خلال المقارنة بين ثلاث مقاربات: مقاربة وائل حلاق التي ترى في تخليق الذات نقدًا للحداثة واستعادة للنموذج الإسلامي، ومقاربة طه عبد الرحمن التي تؤصل للتخلق بوصفه جوهر الإنسان ومشروعيته الوجودية، ومقاربة نظرية الاستخلاف التي تتعامل مع تخليق الذات كركيزة في بناء الدولة الأخلاقية. يهدف البحث إلى استجلاء نقاط الالتقاء والافتراق بين هذه المقاربات الثلاث، مع تحليل آليات التخليق ومراتبه وغاياته في كل منها. توصل البحث إلى أن المقاربات الثلاث تشترك في تأكيدها على الأخلاق بوصفها نطاقًا مركزيًا يوجه العقل والسياسة، وتتفق على نقد الذات الحديثة بوصفها ذاتًا نفعية نرجسية، بينما تختلف في المنهجية والآليات والمرجعية المعرفية.

الكلمات المفتاحية: *تخليق الذات، تقنيات الذات، التزكية، نظرية الاستخلاف، الأخلاق الإسلامية.*

مقدمة: إشكالية الذات الأخلاقية في الفكر المعاصر

يمثل مفهوم الذات الأخلاقية أحد أكثر المفاهيم إشكالية في الفلسفة المعاصرة، خاصة في ظل التحديات التي فرضتها الحداثة من تفكيك للمراكز الثابتة، ونزوع نحو العلمانية التي فصلت القيم عن الحقائق، وسيطرة النزعة الاستهلاكية التي اختزلت الإنسان في كائن نفعي. في هذا السياق، برزت محاولات فلسفية متعددة لإعادة الاعتبار للأخلاق بوصفها جوهرًا للوجود الإنساني، ومن أبرز هذه المحاولات ما قدمه كل من وائل حلاق وطه عبد الرحمن، بالإضافة إلى ما يمكن تسميته بـ«نظرية الاستخلاف» التي تستند إلى تصور متكامل عن الإنسان خليفة في الأرض.

يأتي هذا البحث ليقدم مقارنة تحليلية بين هذه المقاربات الثلاث، من خلال التركيز على مفهوم «تخليق الذات» الذي يشكل نقطة ارتكاز في مشاريعهم الفكرية. وسنحاول استجلاء أوجه التشابه والاختلاف في رؤيتهم لهذا المفهوم، وآلياته، وغاياته، مع تقديم قراءة نقدية تراعي السياقات الفكرية لكل مفكر.

أولاً: تأصيل مفهوم تخليق الذات في الفكر الإسلامي المعاصر

1.1 أهمية الذات في النقاش الحداثي ما بعد الحداثي

يأتي الاهتمام بمفهوم تخليق الذات في سياق نقد أوسع للحداثة وما بعدها. فالحداثة، كما يرى نقادها، أسست لذات فردية منفلتة من أي مرجعية أخلاقية متعالية، مما أدى إلى أزمة معنى عميقة تمثلت في غياب المسؤولية الوجودية، وسيطرة النزعة النفعية التي تختزل الإنسان في وظائفه الاقتصادية والاجتماعية. لهذا، برزت محاولات لاستعادة مفهوم الذات الأخلاقية انطلاقًا من مصادر فكرية مختلفة، سواء في الفلسفة الغربية المعاصرة — كما عند فوكو وتشارلز تايلور — أو في الفلسفة الإسلامية المعاصرة — كما عند طه عبد الرحمن وائل حلاق.

1.2 المصادر النظرية لمفهوم تخليق الذات

تستند المقاربات الإسلامية المعاصرة لمفهوم تخليق الذات إلى مصادر متنوعة:

- **المصادر التراثية:** كتب التزكية والتصوف، وآداب النفس، وعلم الأخلاق الإسلامي.
- **المناهج الفلسفية المعاصرة:** خاصة قراءة ميشيل فوكو لتقنيات الذات في الفلسفة الهلنستية والمسيحية المبكرة.
- **النقد الحداثي:** استثمار أدوات نقد الحداثة تفكيك المفاهيم الغربية المهيمنة.

ثانيًا: وائل حلاق: تخليق الذات كاستعادة للنموذج الإسلامي

2.1 تقنيات الذات: من فوكو إلى حلاق

يستعير وائل حلاق مفهوم «تقنيات الذات» من ميشيل فوكو[1]، لكنه يطوره في ضوء قراءته للتراث الإسلامي. فحلاق يرى أن الحداثة أهملت البعد التقويمي للذات لصالح النزعة الاستهلاكية، بينما ركزت الحضارات التقليدية — والإسلام خاصة — على تخليق الإنسان ليكون كائنًا أخلاقيًا في المقام الأول. تقنيات الذات عند حلاق ليست مجرد ممارسات فردية، بل هي مؤسسة اجتماعية متكاملة تهدف إلى إعادة تشكيل الهياكل الداخلية للنفس الإنسانية، وتخليق فرد قادر على المقاومة الأخلاقية لضغوط الحداثة.

2.2 الشريعة كتكنولوجيا أخلاقية للذات

يقدم حلاق قراءة غير تقليدية للشريعة، إذ يراها ليست مجرد نظام قانوني، بل «تكنولوجيا أخلاقية للذات» بالدرجة الأولى[2]. فالصلاة والصيام والزكاة في تصوره ليست طقوسًا شكلية، بل هي ممارسات صُممت لصياغة فرد يمارس رقابة ذاتية مستمرة. هذه العبادات تهدف إلى إنتاج إنسان يمتلك «مناعة ضد المادية» برفضه تأليه العالم المادي والجشع الرأسمالي، ويتحرر من «الغطرسة الوجودية» بتخليه عن نزعة السيطرة التي تميز الإنسان الحديث.

2.3 الذات الائتمانية مقابل الذات النرجسية

يُقارن حلاق بين نوعين من الذوات:

- **الذات الحديثة:** ذات مريضة تتسم بالأنانية والنرجسية السيادية، وهي نتاج الدولة الحديثة التي اختزلت الإنسان في كائن نفعي.
- **الذات الائتمانية:** الذات التي يسعى النموذج الإسلامي تخليقها، حيث ينظر الإنسان لنفسه مؤتمن أو خليفة على الأرض، تشعر بمسؤولية عميقة تجاه الله والمجتمع والطبيعة.

2.4 الربط بين الكائن والواجب: نقد الفصل الحداثي

جوهر عملية التخليق عند حلاق هو إلغاء الفصل الحداثي بين الحقيقة والقيمة. وتخليق الذات يعني أن يصبح «ما ينبغي أن يكون» (المعيار الأخلاقي) هو المحرك الفعلي لـ«ما هو كائن» (السلوك الواقعي للفرد). وهذا يتحقق عبر مفهوم «سيادة الله»، حيث يؤمن الفرد بأن الله «يعلم السر وأخفى»، مما يحوله إلى رقيب على ضميره وتفكيره الداخلي وليس فقط على أفعاله الظاهرة التي ترصدها قوانين الدولة[3].

ثالثًا: طه عبد الرحمن: تخليق الذات بوصفه جوهر الإنسان

3.1 الإنسان كائن متخلق لا كائن عاقل

يُعد تخليق الذات الغاية القصوى في مشروع طه عبد الرحمن الفلسفي. فهو يرى أن جوهر الإنسان ليس كونه «كائنًا عاقلاً» بل كونه «كائنًا متخلقًا»، أي أن الأخلاق هي التي تحدد ماهية البشرية ومشروعيتها[4]. هذه الرؤية تمثل قطيعة مع التقليد الفلسفي الغربي الذي أسس للهوية الإنسانية على العقل المجرد، وتستعيد الرؤية القرآنية التي تضع الخلق والتخلق في صميم التكوين الإنساني.

3.2 من العقل المجرد إلى العقل المؤيد

يرى طه عبد الرحمن أن تخليق الذات يمر عبر ترقية العقل من مستواه «المجرد» (النظري الفارغ من الأخلاق) إلى «العقل المؤيد»[5]. هذا العقل لا يكتفي بالإدراك المجرد، بل هو عقل متكامل مشبع بالإيمان والإلهام، يجمع بين العمل الصالح والتزكية الروحية، مما يمنح الفضيلة الأخلاقية هويتها الكاملة.

3.3 التزكية: آليات تخليق الذات

يُطلق طه عبد الرحمن على عملية التخليق الباطني مصطلح «التزكية»، وهي عنده «خيار لا ثاني له» يهدف إلى التحقق بالمعاني الروحية والقيم الربانية[6]. وتتجاوز التزكية مجرد «التقويم» السلوكي لتصل إلى «الترقية»، أي تنمية الملكات الروحية الكامنة في الإنسان للوصول به إلى مراتب الكمال. بالتزكية إذن ليست مجرد إصلاح للظاهر، بل هي بناء للباطن وترقية له.

3.4 الحوادث الروحية الثلاث: أركان التخليق

يؤصل طه عبد الرحمن لتخليق الذات من خلال ثلاث حوادث روحية كبرى في التاريخ الإسلامي:

- **أخلاق الميثاق (ميثاق الإشهاد):** استعادة الذاكرة الغيبية حين أقر الإنسان بعبوديته لله قبل وجوده المادي، مما يخرج الذات من وهم «السيادة» إلى رحاب «الائتمان».
- **أخلاق شق الصدر:** ترمز إلى عملية جراحية معنوية لتطهير القلب من «علقة السوء» والأنانية، وهي عملية لا تتم إلا بمساعدة «أستاذ مربٍ» عارف بأمراض القلوب.
- **أخلاق القبلة:** ترمز إلى تحويل وجهة الإنسان من المقاصد المادية إلى المقصد الروحي والوجهة الربانية.

3.5 من الإنسان الأبتر إلى الإنسان الكوثر

يهدف تخليق الذات إلى تحويل المرء من حالة «الإنسان الأبتر» — الذي بتر صلته بالغيب فصار فارغًا روحيًا ومستغرقًا في الماديات — إلى «الإنسان الكوثر» الذي يتميز بـ:

- كثرة الخير وطهارة القلب.
- تحقق بالوحدة بين التعبد (الدين) والتدبير (السياسة والعمل الدنيوي).
- كونه مؤتمنًا على المسؤولية أمام الله والمجتمع، وليس مجرد أداة تقنية[7].

3.6 دور الأستاذ المربي في التخليق

يشدد طه عبد الرحمن على أن تخليق الذات ليس فعلاً فرديًا محضًا، بل يتطلب «صحبة حية» لنموذج متخلق (قطب أو أستاذ مربٍ). فالتخليق عنده هو «سريان أحوال» من الذات المزكاة إلى الذات الراغبة في التخلق، وليس مجرد تلقين لعلوم أو أقوال[8]. هذه المقاربة تعيد الاعتبار للبعد التعليمي والتربوي في عملية التخليق، وتؤكد على الطابع الاجتماعي للأخلاق.

رابعًا: نظرية الاستخلاف: تخليق الذات كأساس للدولة الأخلاقية

4.1 الانتقال من الضبط الخارجي إلى الحوكمة الذاتية

تعتبر نظرية الاستخلاف أن الدولة أو المجتمع الناجح لا يُقاس بعدد القوانين الزجرية، بل بقدرته على تمكين الفرد من الانتقال عبر مراتب النفس:

- **التحرر من هيمنة «النفس الأمارة»:** النزوات المادية والاستهلاك السلبي.
- **تفعيل «النفس اللوامة»:** الضمير والرقابة الأخلاقية الذاتية.
- **الوصول إلى «النفس المطمئنة»:** التي تعيش حالة اتساق مع قيم الوحي والفطرة.

الهدف النهائي هو إنتاج مواطنين يُحكّمون ضمائرهم قبل القانون، حيث تصبح الفضيلة نابعة من «تقنيات الذات» — كالعبادة والتربية — لا من الخوف من العقوبة.

4.2 تخليق الذات كعلاج للفصام الأخلاقي

يأتي «تخليق الذات» في نظرية الاستخلاف كحل للأزمة الوجودية التي يعيشها الإنسان المعاصر المتمزق بين منظومتي الوحي والحداثة. فهو يهدف إلى:

- بناء «سردية توحيدية» دمج قيم الإيمان مع متطلبات العصر، مما يزيل التناقض المعياري الذي يشل إرادة الفرد.
- مساعدة الفرد على تمييز «الديون الحقيقية» (المسؤوليات الأخلاقية) من «الديون الوهمية» (الضغوط الاستهلاكية والمثالية المستحيلة).

4.3 الإنسان كخليفة منتج لا مستهلك رقمي

يعيد تخليق الذات في نظرية الاستخلاف تعريف هوية الإنسان في الفضاء العام:

- يتحول الإنسان من «مادة خام» للبيانات في ظل رأسمالية المراقبة إلى «إنسان سُنني» يوازن بين الغايات الروحية والوسائل المادية.
- تصبح قيمة الذات مرتبطة بما تنتجه من قيم وعمران وإحسان، وليس بما تستهلكه من سلع أو إشعارات رقمية.

4.4 دور الخبير الحي في التخليق الاجتماعي

في البعد الاجتماعي نظرية الاستخلاف، لا يكتفي الفرد بتخليق نفسه، بل يساهم في «تخليق المجتمع»:

- المتعافي من أزماته النفسية (عبر بروتوكولات علاجية محددة) يتحول إلى «خبير حي»، يرمم جراحه بـ«ذهب الإحسان» ويضخ تجربته كـ«رأسمال أخلاقي» يساعد الآخرين على التحول.
- بهذا يصبح «تخليق الذات» فعلاً معدياً يساهم في بناء «علم اجتماع استخلافي» يقوم على التكافل والتعاون على البر والتقوى.

خامسًا: مقارنة بين المقاربات الثلاث

5.1 نقاط الالتقاء

تشترك المقاربات الثلاث في عدد من النقاط الأساسية:

نظرية الاستخلاف	طه عبد الرحمن	وائل حلاق	نقطة الالتقاء
الأخلاق القانون الأعلى الذي يخضع له الفرد طواعية	الأخلاق تحدد ماهية البشرية ومشروعيتها	الأخلاق النطاق المركزي الذي يوجه العقل والسياسة	مركزية الأخلاق
ذات تعاني من الفصام الأخلاقي الرقمي	إنسان أبتر بتر صلته بالغيب	ذات نرجسية مريضة ناتجة عن الدولة الحديثة	نقد الذات الحديثة
إنتاج خليفة منتج لا مستهلك رقمي	الوصول إلى الإنسان الكوثر	إنسان يمتلك مناعة ضد المادية	الهدف الأسمى
التخليق فعل معدٍ يبني علم اجتماع استخلافي	يتطلب صحبة حية وأستاذًا مربيًا	تخليق الذات حل لإنقاذ البشرية	البعد الاجتماعي

5.2 نقاط الافتراق

نظرية الاستخلاف	طه عبد الرحمن	وائل حلاق	نقطة الافتراق
الوحي + علم النفس المعاصر	القرآن + التراث الصوفي + الفلسفة	فوكو + التراث الإسلامي	المرجعية المعرفية
مراتب النفس، الخبير الحي	التزكية، العقل المؤيد	تقنيات الذات	المفهوم المركزي
بروتوكولات علاجية محددة (TLRT)	الحوادث الروحية الثلاث	العبادات كتكنولوجيا أخلاقية	الآلية الأساسية
بناء الدولة الأخلاقية الاستخلافية	تأصيل فلسفي وأخلاقي دون سياسة مباشرة	نقد الحداثة واستعادة النموذج الإسلامي	الغاية السياسية
اجتماعية تكافلية بامتياز	فردية لكن تتطلب صحبة	فردية بامتياز	طبيعة العملية

5.3 تحليل نقدي للفروقات

أولاً: المنهجية والمرجعية

يستند وائل حلاق بشكل كبير إلى المنهج الفوكوي في تحليل تقنيات الذات، بينما ينطلق طه عبد الرحمن من تأصيل فلسفي محكم داخل التراث الإسلامي مع استثمار أدوات العصر، أما نظرية الاستخلاف في تمزج بين المرجعية الوحيانية وعلوم النفس المعاصرة، مما يمنحها طابعًا تطبيقيًا أكثر مباشرة وقابلة للاختبار الإجرائي.

ثانيًا: آليات التخليق

يركز حلاق على العبادات بوصفها تكنولوجيا أخلاقية للذات، بينما يؤصل طه عبد الرحمن لعملية التخليق من خلال ثلاث حوادث روحية كبرى تتجاوز العبادات إلى البعد الوجودي للإنسان، أما نظرية الاستخلاف فتُقدّم آليات أكثر تفصيلاً — بروتوكولات TLRT — تراعي السياقات النفسية المعاصرة بما فيها التحديات الرقمية.

ثالثًا: البعد السياسي

تتباين المقاربات في رؤيتها للبعد السياسي للتخليق. فحلاق يرى في تخليق الذات نقدًا للحداثة واستعادة للنموذج الإسلامي بشكل عام، بينما يبتعد طه عبد الرحمن عن السياسة المباشرة لصالح التأصيل الفلسفي والأخلاقي. أما نظرية الاستخلاف فتجعل من تخليق الذات ركيزة أساسية في بناء الدولة الأخلاقية، مما يمنحها أكثر الأبعاد السياسية والتطبيقية تفصيلاً بين المقاربات الثلاث.

سادسًا: الخلاصة والتوصيات

6.1 خلاصة النتائج

1. **اتفاق في الجوهر واختلاف في المنهج:** تتفق المقاربات الثلاث على مركزية الأخلاق في بناء الذات الإنسانية وعلى نقد الذات الحديثة بوصفها ذاتًا نرجسية نفعية، لكنها تختلف في المنهجية والآليات المرجعية المعرفية.
2. **تنوع في آليات التخليق:** تقنيات الذات عند حلاق، التزكية والحوادث الروحية عند طه عبد الرحمن، مراتب النفس وبروتوكولات TLRT عند نظرية الاستخلاف.
3. **تكامل محتمل:** يمكن النظر إلى المقاربات الثلاث على أنها مستويات مختلفة: مستوى النقد الحضاري (حلاق)، ومستوى التأصيل الفلسفي (طه عبد الرحمن)، ومستوى التطبيق الاجتماعي (نظرية الاستخلاف).

6.2 توصيات البحث

4. بناء نموذج متكامل: العمل على بناء نموذج يجمع بين التأصيل الفلسفي لطه عبد الرحمن، والنقد الحضاري لوائل حلاق، و الإطار التطبيقي نظرية الاستخلاف.

5. تطوير آليات قياس: ضرورة تطوير آليات قياس مدى تحقيق عمليات تخليق الذات لأهدافها، بالاستفادة من أدوات علم النفس المعاصر.

6. الاستثمار في المؤسسات التربوية: توظيف رؤى هذه المقاربات في المؤسسات التربوية والتعليمية، من خلال تصميم مناهج تنمي الملكات الأخلاقية إلى جانب المهارات المعرفية.

الهوامش والمراجع

[1] Foucault, Michel. Technologies of the Self: A Seminar with Michel Foucault. University of Massachusetts Press, 1988. pp. 16-49.

[2] حلاق، وائل. الإسلام والحداثة: نقد النموذج الحداثي. الفصل الخامس، «الشريعة كتكنولوجيا أخلاقية».

[3] حلاق، وائل. المصدر نفسه. الفصل السادس، «تخليق الذات الائتمانية».

[4] عبد الرحمن، طه. سؤال الأخلاق: مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية. ص. 23-41.

[5] عبد الرحمن، طه. روح الحداثة: المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية. ص. 87-102.

[6] عبد الرحمن، طه. سؤال الأخلاق. ص. 115-130.

[7] عبد الرحمن، طه. الحق العربي في الاختلاف الفلسفي. ص. 44-67.

[8] عبد الرحمن، طه. سؤال الأخلاق. ص. 198-215.

[9] Taylor, Charles. Sources of the Self: The Making of the Modern Identity. Harvard University Press, 1989. pp. 495-521.

بسم الله الرحمن الرحيم

نقد النظريات الثلاث في تخليق الذات

قراءة تحليلية في الثغرات والمحددات

مستخلص البحث

يتناول هذا البحث النقد الداخلي والخارجي للنظريات الثلاث المعنية بتخليق الذات الأخلاقية: مقاربة وائل حلاق، ومقاربة طه عبد الرحمن، ونظرية الاستخلاف. يهدف البحث إلى كشف الثغرات المنهجية والمفاهيمية والتطبيقية في كل نظرية، من خلال تحليل بنيتها الفكرية واختبار تماسكها الداخلي. توصل البحث إلى أن كل نظرية تعاني من نقائص جوهرية: فحلاق يبالغ في تعميم تقنيات الذات ويغفل البعد المؤسسي، وطه عبد الرحمن يقدم تصورًا مثاليًا للتخلق يفتقر إلى آليات التحقق الاجتماعي، ونظرية الاستخلاف تواجه إشكالية التطبيق العملي وارتباطها بنمط معرفي محدد. يخلص البحث إلى أن تجاوز هذه النقائص يتطلب بناء نموذج هجين يجمع بين نقاط القوة في النظريات الثلاث مع مراعاة السياقات المعاصرة.

الكلمات المفتاحية: *نقد النظريات، تخليق الذات، وائل حلاق، طه عبد الرحمن، نظرية الاستخلاف، الثغرات المنهجية.*

مقدمة: ضرورة النقد في بناء المعرفة

لا يكتمل البحث الأكاديمي الجاد إلا بمرحلة نقدية تكشف حدود النظريات وثغراتها، ذلك أن كل بناء نظري — مهما بلغت قوته — يحمل في طياته افتراضات غير معلنة، ونقاط عمى، ومحددات سياقية تحد من قدرته على التفسير والتطبيق. وإذا كان البحث السابق قد تناول بالتحليل مقاربات وائل حلاق وطه عبد الرحمن ونظرية الاستخلاف في مفهوم تخليق الذات، فإن هذا البحث يأتي ليتخذ من النقد أداةً مركزية، متقصيًا نقاط الضعف والثغرات في كل نظرية.

سنتناول في هذا البحث نقد كل نظرية على حدة وفق منهجية تحليلية تقوم على ثلاثة مستويات:

- **النقد الداخلي:** اختبار تماسك النظرية مع مقدماتها الخاصة.
- **النقد الخارجي:** قياس النظرية بمعايير مستمدة من سياقات أخرى.
- **النقد التطبيقي:** النظر في إمكانية تطبيق النظرية على أرض الواقع.

أولاً: نقد مقاربة وائل حلاق

1.1 إشكالية تعميم «تقنيات الذات» على التراث الإسلامي

يعتمد حلاق بشكل كبير على مفهوم «تقنيات الذات» المستعار من فوكو، ويطبقه على التراث الإسلامي كأداة تحليلية مركزية. لكن هذا التطبيق يواجه عدة إشكاليات جوهرية:

أولاً: إن مفهوم تقنيات الذات عند فوكو نشأ في سياق خاص هو دراسة الذات في الفلسفة الهلنستية والمسيحية المبكرة. تعميمه على التراث الإسلامي دون مراعاة الخصوصية المعرفية والتاريخية يحمل خطر الإسقاط والاختزال. فالممارسات الإسلامية كالصلاة والصيام ليست مجرد «تقنيات» بالمعنى الفوكوي الذي يركز على علاقة الذات بنفسها، بل هي عبادات ذات بعد تعبدي وغائي يتجاوز مجرد تشكيل الذات.

ثانيًا: يغفل حلاق عن التنوع الهائل في التراث الإسلامي حول تقويم النفس، حيث يختزل هذا التراث في قراءة معينة تتوافق مع إطار فوكو، متجاهلاً المدارس الفقهية والكلامية والصوفية المختلفة التي تقدم تصورات متباينة حول العلاقة بين الذات والأخلاق.

> **ملاحظة نقدية:** يقع حلاق في ما يمكن تسميته «مفارقة المرآة»: يستخدم مفاهيم غربية لنقد الغرب، مما يجعله رهينًا جزئيًا للمنهجية ذاتها التي ينتقدها.

1.2 المبالغة في نقد الحداثة

يقدم حلاق نقدًا شديدًا للحداثة واصفًا الذات الحديثة بأنها «ذات مريضة» و«نرجسية». لكن هذا النقد يعاني من:

- **التعميم المطلق:** يصف حلاق الحداثة ككتلة متجانسة دون تمييز بين تياراتها المختلفة، مما يفقده الدقة التحليلية.
- **المثالية الرجعية:** يوحي خطابه بأن النموذج الإسلامي التقليدي كان مثاليًا خاليًا من العيوب، متجاهلاً إشكاليات تاريخية حقيقية من استبداد سياسي إلى جمود فكري.
- **إهمال الإنجازات الحداثية:** يتجاهل أن الحداثة أنتجت أدوات نقدية مهمة ساعدت في تفكيك السلطة والاستبداد.

1.3 غياب آليات التحقيق العملي

تقدم نظرية حلاق وصفًا نظريًا رفيعًا لتخليق الذات، لكنها تفتقر إلى آليات تحقيق عملية. الأسئلة غير المجابة عديدة:

- كيف يمكن للمؤسسات المعاصرة (الدولة، التعليم، الإعلام) أن تنتج ذاتًا ائتمانية؟
- ما هي المراحل العملية لتخليق الذات في ظل هيمنة الرأسمالية العالمية؟
- كيف يمكن التوفيق بين تقنيات الذات التقليدية ومتطلبات العصرنة؟

1.4 إشكالية الدولة والمؤسسات

يركز حلاق بشكل شبه حصري على الذات الفردية وممارساتها، بينما يغفل عن دور المؤسسات في عملية التخليق. هذا الإغفال يشكل ثغرة كبيرة، لأن أي عملية تخليق للذات تحتاج إلى بنية مؤسسية داعمة — سواء كانت تعليمية أو تربوية أو تشريعية. الافتراض بأن الأفراد يمكنهم تخليق أنفسهم بمعزل عن المؤسسات افتراض غير واقعي في مجتمعات معقدة.

✦ ✦

ثانيًا: نقد مقاربة طه عبد الرحمن

2.1 المثالية الفلسفية المفرطة

تتميز مقاربة طه عبد الرحمن بطابع فلسفي مثالي يضع معايير عليا للتخلق يصعب تحقيقها على أرض الواقع. فمفهوم «العقل المؤيد» و«الإنسان الكوثر» يظلان مثاليين بدرجة قد تجعلهما غير قابلين للتحقق في السياقات الإنسانية العادية.

هذه المثالية تطرح إشكاليتين:

- كيف يمكن قياس مدى تحقق «العقل المؤيد»؟ فالمفهوم يظل غامضًا وغير قابل للتشغيل الإجرائي.
- هل التخلق بهذا المستوى الرفيع متاح لجميع البشر؟ أم أنه حكر على النخبة الروحية؟

2.2 إشكالية «الأستاذ المربي»

يشدد طه عبد الرحمن على دور «الأستاذ المربي» في عملية التخليق، وهو ما يثير عدة إشكاليات:

- **خطر السلطة الروحية:** حين تصبح عملية التخليق متوقفة على «أستاذ مربٍ» صاحب «سريان أحوال»، فإن ذلك يفتح الباب لسلطة روحية قد تتحول إلى هيمنة، وقد شهد التاريخ الإسلامي حالات عديدة من الانحراف في علاقة المريد بالشيخ.
- **عدم قابلية التعميم:** هذه المقاربة تربط التخلق بصحبة حية محددة، مما يجعلها غير قابلة للتعميم على مستوى مجتمعي واسع. فكيف يمكن توفير «أستاذ مربٍ» لملايين البشر؟
- **غياب الضوابط:** لا يقدم طه عبد الرحمن ضوابط واضحة لتمييز «الأستاذ المربي» الحقيقي من المدعي، مما يجعل النموذج عرضة للاستغلال.

2.3 الحوادث الروحية الثلاث: بين الميتافيزيقا والواقع

يؤصل طه عبد الرحمن لتخليق الذات من خلال ثلاث حوادث روحية: ميثاق الإشهاد، شق الصدر، القبلة. هذه الحوادث تنتمي إلى مستوى الميتافيزيقا والتجربة الروحية العميقة، مما يطرح إشكالية:

- كيف يمكن استحضار هذه الحوادث في وعي الإنسان المعاصر؟ فهي حوادث غيبية أو تجارب خاصة بالرسل والصالحين وليست متاحة للتجربة المباشرة لمعظم البشر.
- هل يصبح التخلق مستحيلاً بدون هذه التجارب؟ إذا كان الأمر كذلك، فالنظرية تضع معيارًا غير قابل للتحقق.

2.4 إشكالية اللغة والمصطلحات

يتميز خطاب طه عبد الرحمن باستخدام مصطلحات صوفية وفلسفية عالية التخصص، مما يجعل خطابه:

- غير قابل للترجمة إلى خطاب جماهيري: يصعب تحويل هذه المفاهيم إلى برامج عملية يمكن للمؤسسات التربوية تبنيها.
- محصورًا في النخبة الأكاديمية: يظل التأثير الاجتماعي لهذا الخطاب محدودًا بسبب صعوبة الولوج إليه.
- معرضًا لسوء الفهم: قد تُقرأ المصطلحات بمعانٍ مختلفة عن مقصودها الأصلي.

2.5 غياب البعد السياسي والمؤسسي

يتجنب طه عبد الرحمن بشكل كبير الدخول في التفاصيل السياسية والمؤسسية، مكتفيًا بالتأصيل الفلسفي والأخلاقي. هذه الثغرة تجعل نظريته غير قادرة على تقديم إجابة عن سؤال «كيف؟»: كيف نبني مجتمعًا متخلقًا؟ ما السياسات التي تدعم التخلق؟ ما دور الدولة في هذه العملية؟

✦ ✦

ثالثًا: نقد نظرية الاستخلاف

3.1 إشكالية التطبيق العملي

رغم أن نظرية الاستخلاف تتميز بتقديمها بروتوكولات عملية محددة (TLRT)، إلا أنها تواجه إشكالية التطبيق على نطاق واسع:

- تحتاج البروتوكولات إلى معالجين متخصصين يمكنهم تطبيقها، وهذا يطرح سؤال الكفاءات والتكاليف.
- كيف يمكن ضمان جودة التطبيق وعدم الانزلاق نحو تبسيطات مخلّة للمفاهيم الفلسفية العميقة؟
- هل البروتوكولات قابلة للتحويل عبر الثقافات المختلفة، أم أنها مرتبطة بسياق ثقافي محدد؟

3.2 محدودية قياس النتائج

النظرية تطمح إلى إنتاج «خبراء أحياء» و«مجتمعات استخلافية»، لكن قياس مدى تحقق هذه الأهداف يظل تحديًا كبيرًا:

- ما معايير الحكم على أن فردًا ما قد تحقق من «مرتبة المطمئنة»؟

- كيف نقيس مدى تحوّل مجتمع ما نحو «علم الاجتماع الاستخلافي»؟
- هل المؤشرات الكمية الحالية (علم النفس التجريبي) كافية لقياس تحول روحي ووجودي عميق؟

3.3 إشكالية العلاقة بين الفردي والجماعي

تتأرجح نظرية الاستخلاف بين التركيز على التحول الفردي (عبر بروتوكولات العلاج النفسي) والطموح إلى التحول الاجتماعي (علم الاجتماع الاستخلافي). هذه الازدواجية تطرح سؤالاً: هل التحول الجماعي مجرد مجموع التحولات الفردية، أم أنه يتطلب ديناميات وآليات مختلفة نوعيًا؟ النظرية لا تعالج هذه المسألة بشكل كافٍ.

3.4 التوتر بين المرجعية الوحيانية والمنهج التجريبي

تجمع نظرية الاستخلاف بين مرجعية الوحي من جهة، وعلم النفس التجريبي وعلم الأعصاب من جهة أخرى. هذا الجمع، وإن كان ثريًا من حيث المحتوى، يطرح إشكالية منهجية:

- ما الأولوية حين يتعارض الوحي مع نتائج علمية؟ النظرية تقول بأسبقية الوحي، لكنها لا تقدم معيارًا واضحًا للتعامل مع حالات التوتر المحددة.
- كيف نتعامل مع نتائج علمية تتطور وتتغير بينما الوحي ثابت؟ هل الاندماج ممكن على المدى الطويل؟

3.5 إشكالية التعميم الثقافي

تستند نظرية الاستخلاف إلى مفاهيم إسلامية خاصة (الاستخلاف، التوبة، الأمانة، النفس المطمئنة). هذا الانتماء الثقافي يطرح سؤال التعميم:

- هل يمكن تطبيق هذه النظرية على غير المسلمين؟ وإذا كانت الإجابة بالإيجاب، فكيف تُعدَّل المفاهيم الإسلامية الصريحة؟
- ألا يتعارض ادعاء الكونية مع الخصوصية الثقافية والدينية الجوهرية للنظرية؟

✦ ✦

رابعًا: نقد مقارن: الثغرات المشتركة

4.1 الثغرات المشتركة في النظريات الثلاث

نظرية الاستخلاف	طه عبد الرحمن	وائل حلاق	الثغرة
الأدوات التجريبية غير كافية	مفاهيم غير قابلة للتشغيل	لا يقدم معايير لقياس التخليق	غياب آليات القياس

نظرية الاستخلاف	طه عبد الرحمن	وائل حلاق	الثغرة
التطبيق المؤسسي غير محدد	غياب التفاصيل المؤسسية	إغفال شبه تام للمؤسسات	إشكالية المؤسسات
تتطلب معالجين متخصصين	حكر على أصحاب الصحبة	يفترض وعيًا نقديًا عاليًا	النخبوية المحتملة
مفاهيم إسلامية صريحة	خاصة بالتجربة الروحية الإسلامية	مفاهيم إسلامية في إطار فوكوي	التعميم الثقافي
الرابط الفردي/الجماعي ضعيف	لا توجد خطة للتغيير المجتمعي	لا يوضح آلية الانتقال	غياب نظرية التغيير

4.2 نقاط القوة في كل نظرية

نظرية الاستخلاف	طه عبد الرحمن	وائل حلاق	نقطة القوة
متوسط: يركز على الفرد	جيد: من منظور فلسفي	الأقوى: رؤية كلية للأزمة الحداثية	النقد الحضاري
جيد: يدمج الوحي والعلوم	الأقوى: أصالة فكرية عميقة	متوسط: يعتمد على فوكو	التأصيل الفلسفي
الأقوى: بروتوكولات محددة	ضعيف: مثالي	ضعيف: فقير في الآليات	الآليات التطبيقية
متوسط: يبدأ من الفرد	جيد: رؤية فلسفية شاملة	جيد: رؤية حضارية	الشمولية

خامسًا: الخلاصة والتوصيات

5.1 خلاصة النتائج النقدية

تُظهر القراءة النقدية للنظريات الثلاث أن كلاً منها تعاني من نقائص متكاملة ومتمايزة:

- **حلاق** يملك رؤية نقدية حضارية قوية لكنه يفتقر إلى آليات تطبيقية وأدوات قياس.
- **طه عبد الرحمن** يقدم تأصيلاً فلسفيًا عميقًا لكنه يبقى نخبويًا وغير قابل للترجمة إلى برامج مجتمعية.
- **نظرية الاستخلاف** تمتلك البروتوكولات التطبيقية لكنها تواجه إشكاليات في التعميم الثقافي وقياس النتائج.

استنتاج جوهري: النظريات الثلاث، رغم ثغراتها، ليست في تنافس بل في تكامل. الثغرات في كل نظرية تُسدّها نقاط القوة في النظريتين الأخريين. ومن هنا تأتي ضرورة بناء نموذج هجين يستفيد من المستويات الثلاثة: النقد الحضاري، والتأصيل الفلسفي، والتطبيق السريري الاجتماعي.

5.2 توصيات البحث

7. الجمع بين المستويات الثلاثة: لا ينبغي الاختيار بين النظريات بل بناء نموذج هجين يجمع النقد الحضاري لحلاق، والتأصيل الفلسفي لطه عبد الرحمن، والآليات التطبيقية لنظرية الاستخلاف.
8. تطوير معايير القياس: ضرورة الاستثمار في بناء مؤشرات قياس لتخليق الذات تجمع بين الأدوات التجريبية وحساسية البُعد الروحي.
9. بناء المؤسسات الوسيطة: أي عملية تخليق للذات تحتاج إلى مؤسسات وسيطة (تربوية، تعليمية، تشريعية) تحتضن التخليق وتوفر شروطه، وهو ما تغفله المقاربات الثلاث بدرجات متفاوتة.
10. الحوار مع السياق الرقمي: على النظريات الثلاث أن تتحدث بصراحة أكبر عن تحديات الفضاء الرقمي لعملية التخليق، لأن هذا الفضاء بات يشكل البيئة الرئيسية للذات المعاصرة.
11. تكييف المفاهيم عبر السياقات: ينبغي بذل جهد لتكييف المفاهيم الإسلامية الخاصة لتصبح قابلة للتواصل مع سياقات ثقافية أخرى، دون فقدان خصوصيتها أو الإذعان لادعاءات الكونية الغربية.

خاتمة ختامية للبحثين: نحو نموذج هجين في تخليق الذات

تكشف القراءة التكاملية للبحثين أن مشروع تخليق الذات الأخلاقية في الفكر الإسلامي المعاصر يقف عند مفترق طرق: إما التقوقع في تأصيل فلسفي مثالي لا يطال الواقع، أو الانزلاق نحو تطبيقية انتقائية تفقد عمقها الروحي.

الخروج من هذا المفترق يتطلب نموذجًا هجينًا يُحافظ على التوازن الدقيق بين ثلاثة مستويات: النقد الحضاري الذي يشخص الأزمة بعمق (حلاق)، والتأصيل الفلسفي الذي يبني المرجعية بأصالة (طه عبد الرحمن)، والتطبيق الاجتماعي الذي يُترجم النظرية إلى تغيير حقيقي (نظرية الاستخلاف). هذا النموذج الهجين — إذا أُحسن بناؤه — يكون قادرًا على الإسهام في تجاوز أزمة الذات في الحداثة بما يستحق التحدي الحضاري الراهن.

قائمة المراجع المشتركة

أولاً: المصادر العربية

حلاق، وائل. (2014). الدولة المستحيلة: الإسلام والسياسة ومأزق الحداثة الأخلاقي. ترجمة عمرو عثمان. الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

عبد الرحمن، طه. (2000). سؤال الأخلاق: مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.

عبد الرحمن، طه. (2006). روح الحداثة: المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.

عبد الرحمن، طه. (2006). الحق العربي في الاختلاف الفلسفي. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.

ملكاوي، فتحي حسن. (2020). الصراع على مرجعية القيم في العالم المعاصر. مركز CILE للدراسات، الدوحة.

بن نبي، مالك. (1986). شروط النهضة. دار الفكر، دمشق.

ثانياً: المصادر الأجنبية

Foucault, Michel. (1988). Technologies of the Self: A Seminar with Michel Foucault. University of Massachusetts Press.

Hallaq, Wael B. (2013). The Impossible State: Islam, Politics, and Modernity's Moral Predicament. Columbia University Press.

Hallaq, Wael B. (2018). Restating Orientalism: A Critique of Modern Knowledge. Columbia University Press.

Taylor, Charles. (1989). Sources of the Self: The Making of the Modern Identity. Harvard University Press.

Taylor, Charles. (1991). The Ethics of Authenticity. Harvard University Press.

MacIntyre, Alasdair. (1984). After Virtue: A Study in Moral Theory. University of Notre Dame Press.

Zuboff, Shoshana. (2019). The Age of Surveillance Capitalism. Profile Books.